ربله وآخر ايام اورشليم

بقلم الامير موريس شهاب
امين دار الآثار اللبنانية

٢

المصريون يحثون بني يهوذا على الوقوف في وجه نبوكدرصر

واما نبوكدرصر « فسيقدم كتابور بين الجبال ومثل الكرمل عند البحر » (ارميا ٤٦ : ١٨) و « مصر عجلة بارعة الجمال . قد خرج عليها الزنبور من الشمال . وكذا مستأجروها (*mercenaires*) في وسطها كعجول مسمنة . قد ولوا وهربوا جميعاً ، ولم يقفوا ، لانه قد حلّ بهم عطبهم وقت افتقادهم. صوتها كالحية يسري لانهم زاحفون بجيشهم وآتون عليها بفؤوس كحاطبي الاشجار » (ارميا ٤٦ : ٢٠-٢٢) « هاءنذا افتقد . . . فرعون وجميع المتوكلين عليه . واجعلهم في ايدي طالبي نفوسهم في يد نبوكدرصر ملك بابل وايدي عبيده . »

ولم يكتف ارميا بحثّ الشعب على تَرك المصريين . بل طلب من باروك ان يكتب في درج كتاب نبوّته وان يتلوه على الشعب في بيت الربّ . ففعل باروك واخذ الرؤساء منه الدرج ، وتلوا منه قسماً على الملك يوياقيم وكان جالساً « في بيت مشتاه والكانون امامه متقد » . فشقّ الملك الدرج ، والقاه في النار حتى فني . فاعاد ارميا املاء فحوى الدرج على باروك ، فكتب ذلك باروك في درج ثانٍ . وقال له ارميا : « تقول على يوياقيم ملك يهوذا هكذا قال الرب انك قد احرقت هذا الدرج قائلاً لماذا كتبت فيه وقلت ليأتينّ ملك بابل وليدمرنّ هذه الارض ويخليها من الناس والبهائم . فلذلك هكذا قال الرب على يوياقيم ملك يهوذا انه لا يكون له من يجلس على عرش داود وتكون جثته مطروحة للحرّ في النهار والقرّ في الليل » (ارميا ٣٦ : ٢٩—٣٠) وقد تجاسر وقال له ايضاً : « انه لا يُلطم عليه آهاً يا اخي او آهاً يا اختي ولا يُلطم عليه آهاً واسيداه او آهاً واجليلاه . بل يُطمر طمر الحمار وهو ممزّقٌ مطروح

بعيداً عن ابواب اورشليم» (ارميا ٢٢ : ١٨—١٩)

وبينما كان انبياء اورشليم يضيعون الوقت في الجدل على اي الطرق احسن: محالفة مصر ام الخضوع لنبوكدرصر ، كان ابن ملك بابل يتقدّم بجحافله غازياً البلاد ، وناشراً فيها لواء بأسه. وكان قدوم جيوشه أثّر في ذهن ملك يهوذا ، فلم يجرأ على مقاومته . وقفل نبوكدرصر راجعاً الى بلاده بعد ان تأكد خضوع البلاد لسطوته . ولكن كيف يرضى ملوك مصر بهذا الخضوع وكيف يقبلون على انفسهم جيرة ملك جبار كملك بابل ؟ الم تحتكهم الايام فيعرفوا خطر هذا الجوار . لو كانت حدود بابل مثلاً عند كركيش ، شمالي سورية ، او عند مجدّو ، شمالي بلاد اسرائيل ، لسهل الامر عليهم . لان البلاد التي تقوم بينهم وبين سلطنة بابل تكفي لجعل حاجز يمنع عبور الجيوش الكلدانية او يؤخرها ، ريثما تتهيأ مصر للدفاع عن كيانها . ولكن انّى لهم ذلك والعدوّ في جهات غزة على ابوابهم. فاذا غُلبوا على امرهم في معركة ما ، اصبح العدو بعد المعركة في عقر دارهم . وما هي القفار التي بينهم وبين غزة ؟ ألم تجتزها جنود الفراعنة غير مرة ، مهما كانت عليه من الصعوبة ، أوَ لم تجتحها شعوب الرعاة ، ثم جنود اشور لاحتلال البلاد المصرية ؟ ولذلك فلن يهدأ للفرعون بال ما دامت الشعوب السورية هادئة تخضع لبابل خضوعاً تاماً . ولذا كان الفرعون دائماً يحرّضها على طرد الكلدان من بلادها ، ويحثها على الثورة ، واعداً اياها بنجدتها على طاغيتها ، وبارسال الجنود المصرية للحماية عنها . وكيف لا يُخدع ملك اسرائيل بهذه الوعود ، وهو صنيع الفرعون ، ومصر على مقربة منه. اما بابل فبينه وبينها بلاد واسعة تهبّ معه مقتدية به وتقوم على البابليين.

نبوكدرصر يشوّي على اورشليم للمرة الاولى

ولم يتمهد نبوكدرصر من البلاد حتى ظن يوياقيم ان الوقت قد حان ، فنادى شعبه للثورة ، غيرَ مبالٍ بنصائح ارميا النبي ولا بوعيده. وما وصل خبر ذلك الى بابل الا اوفد نبوكدرصر سريعاً احد قوّاد ابيه لخنق الثورة في مهدها . وحين رآها تتفاقم وتكاد تنتشر في البلاد المجاورة طار اليها بجنده .

فما وصل الى قرب بلاد يهوذا الا كان يوياقيم قد توفي ، وقام مكانه ولده يوياقين . ولكن لم يطل عهده في الملك ، وقد قال فيه ارميا انه لو كان خاتماً بيد الرب اليمنى لنزعه منها ، وقال ايضاً معبّرًا عن افكار الله: «وجعلتك في ايدي طالبي نفسك وايدي الذين تفزع من وجوههم وفي يد نبوكدرصر ملك بابل وايدي الكلدانيين . وقذفتك انت وامك التي ولدتك الى ارض اخرى حيث لم تولدا و هناك تموتان ... هكذا قال الربّ اكتبوا هذا الانسان عقيماً رجلًا لا يُفلح في ايامه ولا ينفلح من ذريته احد يجلس على عرش داود ويتسلط على يهوذا من بعد » (ارميا ٢٢: ٢٥ و ٢٦ و ٣٠)

وما مضى على حصار اورشليم زمن ، وعلى تبوء يوياقين العرش ثلاثة اشهر ، الّا دخل الكلدان اورشليم وقبضوا على ملكها وعلى كبار المملكة ، فساقوهم جميعاً مكبلين الى بابل بعد ان اعملوا النهب والسلب في المدينة ، وسطا نبوكدرصر على كنوز الهيكل ونهب انفسها . فلم يبقَ في البلاد زعيم الا سيق الى بابل ، وترك نبوكدرصر في القدس احد احفاد يوشيا ، ودعاه صدقيا ، وملكه على البلاد .

ارميا يحذر الشعب من الثورة على ملوك بابل

ولكن هل يقبل شعب ذو عقيدة ان يهان ويُذلّ ، وما تعمل الغلبة في نفس المغلوب اذا كانت هذه النفس شامخة ابيّة ، وهي تعتقد ان سلطة علوية انزلت بها العقاب حيناً ولكنها لن تتخلى عنها . فكيف يقبل بنو يهوذا الذلّ والهوان وهم على اعتقاد صميم انهم الشعب المختار ، وان ربهم لن يتخلى عنهم ابدًا ، وقد قطع على نفسه العهود . وعلامَ يدلّ توقف المصريين عن نجدتهم ؟ أليس من مصلحة مصر ان تكون لهم عوناً ؟ فان لم تتمكن من ذلك هذه المرّة افلا تنجدهم في غيرها ؟ وكيف لا يتحمّس الشعب للاخذ بالثأر ، وقد رأى ما جرى بسطوة الاشوريين وكيف زالت بسرعة عجائبية ؟ خاصة وان المنفيين كانوا على صلة دائمة بهم ينذرونهم دائمًا بقرب العودة الى البلاد ويشجعونهم ضد الكلدان . وكان جميع انبياء يهوذا يبشرونهم بقرب الفرج ويقوّون عزائمهم . فمبثاً حاول ارميا ان يردعهم عن ذاك الغرور ويقنعهم ان الضربة

ستكون هائلة اذا صدرت منهم اقلّ بادرة. وكان ارميا يكتب للمنفيين: «ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا من ثمرها . اتخذوا نساء ولدوا بنين وبنات . . . واكثروا هناك ولا تقلّوا. واطلبوا سلام المدينة التي اجليتكم اليها ، وصلوا من اجلها الى الربّ فانه بسلامها يكون لكم سلام» (ارميا ٢٩ : ٥ و ٦ و ٧)

وكان يصيح بالشعب الباقي في اورشليم: « والآن قد جعلت جميع هذه الاراضي في يد نبوكدرصر ملك بابل . . . والامة والمملكة التي لا تتعبد لنبوكدرصر ملك بابل وكل من لا يجعل عنقه تحت نير ملك بابل فاني افتقد تلك الامة بالسيف والجوع والوبا. » (ارميا ٢٧ : ٦ و ٨)

وكيف لا يشكّ الشعب في صدق ارميا ، وهم يرونه يدافع عن الكلدان هذا الدفاع ؟ والشعب دائماً عدوّ مصلحته لا يخضع الا لمن يشجعه في غروره . فساء ظنّه في ارميا . وكاد مراراً يفتك به ، وكم تمنى ذلك من عانده من الانبياء ، وكم من مرة حرضوا الشعب على قتله !

وقد تأثر صدقيا من حماس شعبه وجعل يميل لارضائه ، ولو كان صنيعة ملك بابل . لانه صعب على المرء ان يظن منه الشعب خيانة وطنه لمصالح شخصية . ولكن الملك صدقيا كان يدعو اليه ارميا النبي سرّاً ويرسل اليه من يستشيره عن الاحوال وعن الخطة السياسية الواجب اتباعها . وقد قال له ارميا يوماً بصراحة: « انك ستُجعل في يد ملك بابل » (ارميا ٢٧ : ١٦)

نبوكدرصر ينكب اورشليم للمرة الثانية

وما زال الفرعون المصري ينفخ روح الثورة في البلاد السورية حتى قام القسم الاكبر منها على الكلدان . وكان نبوكدرصر قد تبوأ عرش بابل فحشد جيشاً عرمرماً وحمل به على سورية . وعند وصوله الى ربله ، عسكر فيها حيناً ليستطلع اخبار الثورة وهو حيران في اي الشعوب يهاجم اولاً ، وقد رأى انه يحسن به ان يبدأ بضرب الثورة في قلبها، وما قلبها الا اورشليم، فاذا استولى عليها تمكن من التوغل جنوباً لقطع المواصلات بين مصر وحلفائها من الشعوب القاطنة شرقي الاردن ، ومن الفينيقيين واهل مملكة صور .

فما صحت له الفرصة الا قام بجيوشه يرمي نطاق الحصار حول اورشليم وباقي بلدان يهوذا . وقد دافع اهل اورشليم عن مدينتهم دفاع الابطال . ولكنهم لم يتمكنوا من منع الحصار وخرق نطاقه . وكان ارميا يلح دائماً على الشعب بالتسليم للكلدان حتى نفرت منه الكهنة والانبياء وازداد الظن بخيانته . وفي خلال حصار الكلدان لاورشليم، ارسل صدقيا يطلب من ملك مصر ان ابريس يبر بوعوده ويعطيه « خيلاً وشعباً كثيرين » (حزقيال ١٧ : ١٥) . ولبى ملك مصر طلبه ، فدرى نبوكدرصر بمجيء الجيش المصري ورفع الحصار حيناً عن اورشليم . فانتهز ارميا الفرصة للخروج من اورشليم ، وبث دعوته في بلاد بنيامين . ولكن حرس باب المدينة ظنوه خارجاً لمخابرة الكلدان فقبضوا عليه وزجوه في السجن ، ولم ينجُ من العذاب الا بواسطة الملك صدقيا بذاته . اذ انتشله من سجنه وامر ان تطلق له حرية الاقامة في ساحة السجن ، وامر له بالطعام في اشد ايام المجاعة .

وعاد الكلدان الى حصار اورشليم يضيقون عليها ويدكون حصونها، فاستشار صدقيا ارميا سراً وسأله رأيه في التسليم فاجابه ارميا : « ان خرجت الى رؤساء ملك بابل تحيا نفسك وهذه المدينة لا تحرق بالنار وانت واهل بيتك تحيون . . فقال الملك صدقيا لارميا : « اني اخاف من اليهود الذين هربوا الى الكلدانيين ان اجعل في ايديهم فيسخروا مني » (ارميا ٣٨ : ١٧ و ١٩)

وكان ارميا يقول للشعب : « ان قتلتم جميع جيش الكلدانيين الذين يحاربونكم وبقي منهم رجال قد طعنوا هولاء يقومون كل واحد في خبائه ويحرقون هذه المدينة بالنار .

« ان هذه المدينة ستُجعل في ايدي جيش ملك بابل فيأخذها فقال الرؤساء للملك ليقتل هذا الرجل فانه انما يرخي ايدي رجال القتال الباقين في هذه المدينة وايدي جميع الشعب » (ارميا ٣٨ : ٣ و ٤)

وبعد سنة ونصف من ابتداء الحصار « فتحت المدينة ودخل كل رؤساء ملك بابل . . . فلما رآهم صدقيا ملك يهوذا وجميع رجال الحرب هربوا وخرجوا من المدينة ليلاً . . . فجرى جيش الكلدانيين على اثرهم فادركوا صدقيا في

صحراء اريحا فاخذوه واصعدوه الى نبوكدرصر ملك بابل في ربله بارض حماة، فتلا عليه القضاء . وذبح ملك بابل بني صدقيا في ربله على عينيه وذبح ملك بابل جميع اشراف يهوذا . وفقأ عيني صدقيا واوثقه بسلسلتين من نحاس ليجيء به الى بابل . واحرق الكلدانيون بيت الملك وبيوت الشعب بالنار وهدموا اسوار اورشليم . وسائر الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربين الذين هربوا اليه وسائر الشعب الذين بقوا اجلاهم نبوزرادان رئيس الشرط الى بابل . اما شعب المساكين ممن لم يكن لهم شيء فتركهم ... في ارض يهوذا واعطاهم كروماً وحقولاً في ذلك اليوم .» (ارميا ٣٩)

هذا ما كان من امر اورشليم وقد اصبحت في يد الكلدان قرية لا يبالى بها ولا يخشى منها . ولكن انّى لشعبها الحيّ ان يفقد امله بالنصرة وهو دائماً يؤمل بالفرج ؟ وكان ارميا يعده به اذ يقول : « لا تخف يا عبدي يعقوب يقول الرب فاني معك وسافني جميع الامم التي دحرتك اليها واما انت فلا افنيك بل اؤدبك بالانصاف .» (ارميا ٤٧ : ٢٨) او يقول « اسرائيل غنم مشتتة قد طردته الاسود . اولها ملك اشور افترسه واخرها نبوكدرصر هشم عظامه . لذلك هاءنذا افتقد ملك بابل وارضه كما افتقدت ملك اشور واعيد اسرائيل الى مرتعه فيرعى في الكرمل وباشان وتشبع نفسه في جبل افرائيم وجلعاد .» (ارميا ٥٠ : ١٧ — ٢٠)

ويقول ايضاً « ان بابل كأس ذهب بيد الرب تسكر كل الارض . من خمرها شربت الامم ولذلك تدلهت الامم . بغتة سقطت بابل وحطمت . ولولوا عليها . خذوا بلساناً لوجعها لعلها تشفى . قد عالجنا بابل فلم تشفَ . اهجروها ولنذهب كل واحد الى ارضه ... الرب ابدى برّنا فهلموا نخبر في صهيون بعمل الربّ الهنا .» (ارميا ٥١ : ٧—١٠)

صدقت ببابل اقوال ارميا اذ انها دمّرت وهجرت ولم تزل ارضها مهجورة، ومركزها مجهولاً حتى ايامنا ، حيث اعادتها الحفريات الى حيّز الوجود . ولكن فلنعد بالذكر الى سهول البقاع ، ولنلق نظرة على الآثار التي تركها نبوكدرصر في ضواحي ربله عند مروره بها .

(للبحث صلة)